

الحجاج اللغوي في خطاب الإمام الحسن المجتبي (ع) دراسة تداولية

مديرية تربية البصرة

م. د عبدالحسن علي الناصر

abdalhasan.alnaser@yahoo.com

الملخص:

يعدّ الخطاب الحجاجي البؤرة المركزية في إيصال الأفكار وتثبيت المقاصد في ذهن المتلقي، إذ ينطوي على أثر فعّال في إقناع الآخرين؛ كونه محاولة واعية من المتكلّم للتأثير في المتلقي عبر وسائل الإثارة والتأثير، ومن ثمّ دفعه نحو تبني رأي ما، أو الاستجابة لطلب معين أو لتغيير رأيه لبناء موقف جديد، فأثرت الخوض في هذا الموضوع؛ محاولة مني الكشف عن خباياه، والوقوف على أهمّ سماته وأنواعه بمنظور حداثي، لذا تسعى الدراسة الكشف عن الآليات الإقناعية الحجاجية في خطاب الإمام الحسن المجتبي (ع) بتوظيف بعض ما توصل إليه البحث التداولي من مفاهيم وقوانين كمبدأ التعاون، ونظرية أفعال الكلام، واستثمار ما قدّمته النظريات الحجاجية من مفاهيم وأدوات في التحليل؛ أملاً في إضفاء إشراف موجزة لأهم الآليات الإقناعية التي وظّفها الإمام الحسن (ع) في محاوراته مع الآخرين، والطرق التي استعملها (ع) في إفحام المتلقي على الرغم من عناده ومكابرتة، فجاءت الدراسة على مبحثين: الأول كان توطئة نظرية نرمي بها إلى إلقاء ضوء على بعض المفاهيم والأسس النظرية ذات الصلة بمحتوى

الدراسة فتطرقنا إلى: مفهوم التداولية والحجاج، أمّا المبحث الثاني: فكان لأهم الآليات الاقناعية اللغوية التي استثمارها الإمام الحسن المجتبی (ع) في خطابه الحجاجي، ودورها في تحصيل الاقتناع واستمالة المتلقي ومن ثمّ إذعانه لفحوى الخطاب الموجّه، وخُتِمت الدراسة بأهم ما توصلنا إليه من نتائج. والحمد لله أولاً وآخراً والصلاة والسلام على رسوله وآله أبداً.

الكلمات المفتاحية: (الخطاب، التداولية، الحجاج اللغوي).

Linguistic Persuasive Mechanisms in the Speech of Imam Al-Hasan Al-Mujtaba (PBUH): A Pragmatic Study

Abstract

Argumentative discourse serves as the central means of conveying ideas and solidifying intentions in the recipient's mind, as it exerts a powerful influence in persuading others. It represents a conscious effort by the speaker to impact the audience through various means of stimulation and persuasion, ultimately guiding them toward adopting a particular opinion, responding to a specific request, or reconsidering their stance to construct a new perspective.

Motivated by a desire to explore this topic, I have endeavored to uncover its intricacies and examine its key features and classifications through a modern lens. This study aims to investigate the persuasive argumentative mechanisms in the speech of Imam Al-Hasan Al-Mujtaba (PBUH) by employing concepts and principles from pragmatic research, such as the Cooperative Principle and Speech Act Theory. Additionally, the study utilizes argumentative theories' concepts and tools in analysis, hoping to shed light on the most significant persuasive mechanisms employed by the

Imam (PBUH) in his dialogues. It also examines the strategies he used to refute opponents, even in the face of their obstinacy and resistance.

The study is structured into two main sections: the first presents a theoretical introduction that outlines relevant concepts and foundational principles, including pragmatics and argumentation. The second section delves into the most crucial linguistic persuasive mechanisms that Imam Al-Hasan Al-Mujtaba (PBUH) employed in his argumentative discourse, highlighting their role in achieving persuasion, attracting the audience, and ultimately leading to their submission to the intended message.

The study concludes with key findings.

All praise is due to Allah, first and last, and may peace and blessings be upon His Messenger and His noble household, forever.

Keywords: discourse, pragmatics, linguistic argumentation

المبحث الأول

مناقضات في الحجاج والتداولية

أولاً: مفهوم الحجاج

الحجاج في اللغة: تدور معاني الجذر اللغوي لمادة (ح ج ج)، على معنى التخاصم والتنازع والبرهنة والغلبة، وهي مفاهيم وعمليات مأخوذة بمعانيها الفكرية والتواصلية، جاء في لسان العرب "حاججته أحاجه حجاجاً ومُحاجةً حتى حججته، أي غلبته بالحُجج التي أدليت بها... والحجة: الدليل والبرهان، وقيل: الحجة ما دُفِعَ به الخصم، وقال الازهري: الحجة ما يكون به الظفر عند الخصومة. ومن أمثال العرب: لِحْ فَحِجْ، معناه لِحْ وتمادى به لِحاجه فغلب من لاجه بحججه، ورجلٌ مُحجاجٌ أي جدلٌ،

والتحاج: التخاضم، وجمع الحُجَّة: حُجَجٌ وحِجَاجٌ (ابن منظور: مادة حجج)، (الأزهري، ينظر: مادة حج).

هذه التحديدات المعجمية تبيِّن أنَّ الحجاج إنما يكون لخصومة، وهو بهذا مرادف للجدل⁽¹⁾، وأصل الخصومة المنازعة التي لا تستلزم عداوة ولا مقاتلة، بل مدارها الاختلاف في دعوى تملك الحق، والغلبة فيه للذي يقيم الحُجَّة والبرهان، وهذا يستدعي أن يكون هناك ثلاثة أطراف تتحقق عبرها العملية الحجاجية التواصلية: الأول: المُحاجج وهو المتكلم، الثاني: المُحاجج وهو الطرف السامع، فإذا غلب كان محجوجاً (الزمخشري، ينظر: مادة (حجج))، أي إنه اقتنع بالأدلة والحجج والبراهين، والثالث: الحُجَج التي تتداول على ألسنة المتحاجين.

الحجاج في الاصطلاح: ليس بوسعنا القبض على مفهوم دقيق كل الدقة لمعنى الحجاج، فهو مفهوم عائم يصعب حصره والإحاطة به؛ وذلك لتعدد مظاهر الحجاج وتنوعها، وتعدد استعمالاته وتباين مرجعياته كالخطاب والفلسفة والمنطق، فلا غرابة أن نجد مثلاً حجاجاً لغوياً وحجاجاً فلسفياً وحجاجاً قضائياً وحجاجاً سياسياً... الخ (بروتون وجوتيه، 2011، ينظر: 15)، فضلاً عن ذلك فإنَّ الحجاج بوصفه نظرية لم تنغلق بعد، بل نراها تشهد كل يوم ظهور مؤلفات جديدة تغني هذه النظرية وتثريها (الدريدي، 2011، ينظر: 15)، ولكن لا بأس بتلمس بعض معانيه والوقوف على بعض حيثياته أملاً في إضفاء إشراقة موجزة على جوانب منها.

(1) وهو شدة الخصومة، وجادله، أي خاصمه، مُجادلة وجدالاً. (الجوهري، 2012: مادة جدل).

نجد القدماء في تراثنا العربي قدّموا رؤية لمفهوم الحجاج تقترب إلى حد كبير من مفهوم الجدل⁽¹⁾، أو أنّهم عرّفوا "الحجاج بمعناه العام دون الدخول في تفاصيله وآلياته" (الدكان، 2014: 24)، من ذلك ما أشار إليه الجرجاني (729هـ) في تعريفه للحجاج قائلاً: "المحاجة: هي ادّعاء شيء مع الحجّة عليه" (الجرجاني، 1982: 222)، وواضح من هذا التعريف أنّ الجرجاني ينطلق من (الحجّة) في بيانه للحجاج مع أنّ الحجّة هي الركن الأساس في العمل الحجاجي وليست الحجاج نفسه، فضلاً عن إهماله لدور المتلقي بوصفه الطرف الآخر للعملية الحجاجية التي تقوم على الادّعاء والاعتراض، وأطلق ابن الأثير الحلبي (ت737هـ) على الحجاج (المذهب الكلامي) وعرّفه بأنّه "احتجاج المتكلم على خصمه بحجّة تقطع عناده، وتوجب له الاعتراف بما ادّعاه المتكلم، وإبطال ما أورده الخصم. وسُمّي بالمذهب الكلامي؛ لأنّه يسلك فيه مذهب أهل الكلام في استدلالهم على الباطل حُجج خصومهم." (ابن الأثير: 302). وهذا التعريف أقرب إلى مفهوم الجدل منه إلى مفهوم الحجاج؛ وذلك بفرضه (القطع والوجوب) مع أنّ ميدان الحجاج المحتمل والممكن من غير فرض على الآخر؛ ليتسنى للمتلقي تحصيل الاقتناع بنفسه الذي هو غاية العمل الحجاجي، فضلاً عن تقييده ميدان الدرس الحجاجي في علم الكلام، ولهذا أطلق عليه (المذهب الكلامي)، مع أنّ مساحة الحجاج وميدان اشتغاله أوسع بكثير مما ذكر.

أمّا في الدرس اللساني الحديث فقد تباينت الرؤى وتشعبت حول مفهوم الحجاج، واتخذت مدارس خاصّة ونظريات لها أسسها ومنطلقاتها وآلياتها لا مجال في هذا المختصر بسط القول فيها إلاّ إنّنا نجد أنّ أبرز

(1) سنتبع وجوه المفارقة بين مفهوم الحجاج والجدل عند بياننا لمفاهيم متعلقة بالحجاج في ضمن هذا التمهيد.

التعريفات التي قُدِّمَتْ للحجاج هو تعريف د. طه عبدالرحمن الذي حدّد الحجاج بقوله: "كلُّ منطوقٍ به موجّه إلى الغير؛ لإفهامه دعوى مخصوصة، يحقُّ له الاعتراض عليها" (عبد الرحمن، 1998: 226)، فالحجاج استناداً إلى هذا التعريف يتعلّق بمبادئ منها:

1- مبدأ النطق لحظة الإيقاع⁽¹⁾؛ ذلك إنّ المحاجج إنّما يكون محاوراً و"لا يكون المحاور ناطقاً حقيقياً إلا إذا تكلم لساناً طبيعياً معيناً، وحصل تحصيلاً كافياً صيغه الصرفية وقواعده النحوية وأوجه دلالات ألفاظه وأساليبه في التعبير والتبليغ" (عبد الرحمن، 2000: 37).

2- مبدأ التواصل (موجّه إلى متلقٍ)، وفي ذلك إشارة إلى انفتاح الحجاج على العالم الخارجي، إذ يُعدّ حلقة ضرورية تمرّ عبرها مختلف العلوم، فهو ظاهرة اجتماعية وثقافية يحاكي الآخر، سواء أكان ذلك الآخر فرداً أم جماعة أم جمهوراً حاضراً، أم جمهوراً كونياً.

3- مبدأ التوصيل والإفهام، ويُنزّل الحجاج هنا في صميم التفاعل بين المتكلم والمتلقي؛ ذلك أنّ التواصل لا يتم من أجل لا شيء، بل

⁽¹⁾ في إشارة إلى قضية التداول اللغوي، فالتلفظ هو الأساس الذي بنى عليه أوستن (نظرية أفعال الكلام) بوصفه ممارسة المتكلم لينجز فعلاً لغوياً، يتلاءم مع السياق، والتلفظ هو من يحدد دور الملفوظات التداولي ويسهم في بيان دلالتها، وهو الفصل لبيان الحقيقة من المجاز في استعمال اللغة، وهو كذلك يقود إلى تعدد الإنجازات والمعاني (الشهري، 2004، ينظر: 30)، هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى فإنّ نظرية الحجاج تولي للمكتوب تركيزاً كبيراً؛ لأن مجال إعمال العقل فيه تحليلاً وتأويلاً أوسع مما هو عليه في الخطابة التي تتميّز بالشفوية (الطلبة، 2008، ينظر: 110).

يأتي لربط علاقات مع الغير، بهدف التأثير فيه، عن طريق تحريك اعتقاده، ودفعه إلى العمل (عشير، 2006، ينظر: 125).

4- مبدأ احتمالية النتيجة لا قطعيتها، فميدان الحجاج الممكن المحتمل، إذ لا ينطلق من حقيقة مفروضة، بل من قناعة يسعى المتكلم إلى بنائها، فهو عملية تعتمد على التوافق وليس القطعية، بمعنى آخر أن صفة الاحتمالية التي تشكّل صفة في الحجاج "تقوم في كونه ينطوي على قدر من الالتباس في الوظيفة، هذا الالتباس الذي لا نجد له نظيراً في غيره من طرق الاستدلال؛ ولولا تضمّن الحجاج لهذا الالتباس، لما تميّز طريقه عن طريق البرهان، فهذا الالتباس هو الفاصل بين الحجاج والبرهان" (عبد الرحمن، 1998: 230)⁽¹⁾.

5- مبدأ الاختيار وعدم الإكراه في قبول الحجة أو رفضها، وهو الطريقة الحضارية السلمية المثلى لحل النزاع والتخاصم، وهو "البديل عن العنف... إذ يمكن حسب بيرلمان وتيتكاه أن نسعى إلى تحقيق النتيجة نفسها باعتماد إحدى وسيلتين: العنف أو الخطاب نقتنع الناس بواسطته فيقتنعون" (صولة، 2007: 44)، وهو بهذا يحقق أنجع الوسائل لحل الخلافات.

ثانياً: مفهوم التداولية

يرجع الفضل في ظهور اللسانيات التداولية- بوصفها درساً لسانياً معاصراً- إلى الفيلسوف الإنكليزي جون أوستن (J. Austin) (1911-

⁽¹⁾ سنشير في (الشهري، 2013: 19) إلى بسط أكثر لمفهوم (الالتباس) في الحجاج.

1960م) إثر صدور كتابه الموسوم (كيف ننجز/ نصنع الأشياء بالكلمات)⁽¹⁾، إذ تُحدّد عنده التداولية على أنّها جزء من التعامل اللغوي من حيث هو جزء من التعامل الاجتماعي (أوستن، 2008، ينظر: 124)، فهو يتقل من المستوى اللغوي والنفسي للغة، إلى المستوى الاجتماعي، وما ينطوي عليه من تأثير وتأثر، عبر استعمال اللغة تحقيقاً للتواصل (بوبكري، 2004، ينظر: 21).

نتيجة لتداخل مجالات التداولية وتنوعها، وتعدد اهتمامات الباحثين والعلوم التي تناولتها، فقد تعدّدت تعريفاتها فمنها (الشهري، 2004، ينظر: 22)، (بوقرة، ينظر: 166)، (صحراوي، 2005، ينظر: 16)، (ابن عيسى، 2008، ينظر: 11):

- هي دراسة الأسس التي نستطيع بها لِم تكون مجموعة من الجمل شاذّة تداولياً.

- هي دراسة اللغة من وجهة نظر وظيفية (معرفية، واجتماعية، وثقافية).
- هي دراسة جوانب المعنى التي تهملها النظريات الدلالية.
- هي دراسة استعمال اللغة في الخطاب.
- هي دراسة المعنى التواصلية، أو في معنى المرسل في كيفية قدرته على إفهام المرسل إليه بدرجة تتجاوز معنى ما قاله.

⁽¹⁾ الكتاب عبارة عن محاضرات ألقاها أوستن Austin في جامعة هارفارد عام 1955م، ضمن برنامج (وليام جيمس) قبل وفاته المفاجئة بخمسة أعوام 1960م، وقد جمع إرمسون J.O.Urmson محاضراته وعدّها إثنتا عشرة محاضرة في كتاب نُشر عام 1962م بعنوان (How to do things with words?) (نحلة، 2011، ينظر: 43).

- هي فرع من علم اللغة يبحث في كيفية اكتشاف السامع مقاصد المتكلم أو دراسة معنى المتكلم.

- إنها تتطرق إلى اللغة كظاهرة خطابية وتواصلية واجتماعية معاً. وإجمالاً لهذه التعريفات "يمكن تعريف التداوليات في أوسع معانيها بأنها دراسة التواصل اللغوي في السياق" (الشهري، 2013: 66) أو هي "دراسة اللغة في الاستعمال" (نحلة، 2011: 14)، فالمعنى ليس مختبئاً خلف المتكلم، وليس ثاوياً وراء السامع، وليس شيئاً متأصلاً بالكلمات وحدها، بل هو تداول بين المتكلم والسامع في سياق⁽¹⁾ محدد وصولاً إلى المعنى، فالتداولية إذن دراسة الاستعمال اللغوي.

المبحث الثاني

الآليات الإقناعية اللغوية في خطاب الإمام الحسن المجتبي (ع)

يعتمد الحجاج الخطاب الطبيعي على آليات مخصوصة مطواعة حسب استعمال المتكلم لها، فيعمد إلى توظيف الأدوات اللغوية، بمعانيها وإمكاناتها، وتنوع وظائفها في السياقات المختلفة، واعتماداً على كثير من النظريات الحجاجية، واستناداً إلى مادة موضوع الدراسة، من الممكن تقسيم الآليات اللغوية في خطاب الإمام الحسن المجتبي (ع) إلى:

⁽¹⁾ عن ماهية السياق في التداولية، وأنواعه، ودوره في تحديد الخيارات اللغوية من بين الخيارات المطروحة (رحيمة، 2008، ينظر: 24).

أولاً: ألفاظ التعليل

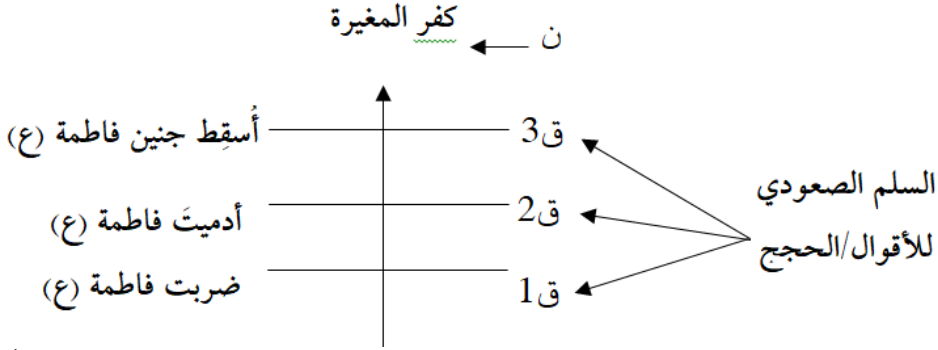
إنَّ ألفاظ التعليل من الأدوات الناجحة والفاعلة التي يستعملها المتكلم لتقديم حججه في خطابه؛ إذ تربط بين الفعل وسببه، وبمقدار قوَّة الارتباط هذه تكون قوَّة الاستدلال، فالعلاقة السببية هي من أبرز العلاقات الحجاجية وأقدرها على التأثير في المتلقي، إذ يحرص المحاجج فيها على جعل بعض الأحداث أسباباً لأحداث أخرى، ويسم فعلاً ما أنَّه نتيجة متوقعة لفعل سابق، ويجعل موقفاً معيناً سبباً مباشراً لموقف لاحق (الدريدي، 2011، ينظر: 327).

إنَّ التعليل نوع من أنواع التأكيد والتثبيت والاطمئنان بصحَّة الخبر أو الحكم؛ لأنَّ ذكر الشيء معللاً مما يقوِّي تأثيره في النفس وثقتها به، ((وفائدته التقرير والأبلغية؛ فإنَّ النفوس أبعث على قبول الأحكام المعلَّلة من غيرها)) (السيوطي 1988: 282/1)، ومن هذه الأدوات التعليلية التي شكَّلت مظهراً بارزاً في خطاب الإمام الحسن (ع):

1- المفعول لأجله: هو أحد ألفاظ التعليل وإنما ورد في الخطاب بوصفه ((المصدر المُفهِم عِلَّة، المشاركُ لعامله: في الوقت والفاعل)) (عبد الحميد، 2005: 574/1). ويكمن البعد الحجاجي في بيانه ((علة الإقدام على الفعل، وهو جواب له)) (الخوارزمي، 1990: 417/1)، فينتج عنه توجيه الخطاب الوجهة التي يبتغيها المحاجج، وبهذا تتحدّد قيمة الفعل وخطورته على نحو قول الإمام الحسن (ع) في محاججته للمغيرة بن شعبة: ((وَأَنْتَ الَّذِي ضَرَبْتَ فَاطِمَةَ بِنْتَ رَسُولِ اللَّهِ (صلى الله عليه وآله وسلم) حَتَّى أَدْمَيْتَهَا وَأَلْقَتْ مَا فِي بَطْنِهَا، اسْتِدْلَالاً مِنْكَ لِرَسُولِ اللَّهِ (صلى الله عليه وآله وسلم) وَمُخَالَفَةً مِنْكَ لِأَمْرِهِ، وَانْتِهَاكاً لِحُرْمَتِهِ،

وَقَدْ قَالَ لَهَا رَسُولُ اللَّهِ (صلى الله عليه وآله وسلم): يَا فاطمة أنتِ سيِّدة نساءِ أهلِ الجنَّة. والله مُصَيِّرُكَ إلى النَّارِ، وجاعِلُ وبالٍ ما نَطَقْتَ بِهِ عَلَيْكَ)) (الطبرسي، 1424هـ: 40/2). الخطاب هذا دار بين الإمام الحسن (ع) والمغيرة، استثمر فيه الإمام (ع) الطاقة الحجاجية لفعل التعليل في إظهار المحرِّك الأساس والسبب الرئيس وراء إقدام المغيرة على فعله، وانتهاكه لحرمّة النبي (ص) عبر السيدة الزهراء (ع) بضربه إياها، قيّدها الإمام بثلاثة أفعال هي: (الاستذلال، والمخالفة، والانتهاك)، قد بالغ الإمام في بيانها، وركّز على إظهارها؛ كونها تؤدّي إلى النتيجة الضمنية اللاقولية وهي عدم إيمان المغيرة وكفره وفسقه.

يبدأ الإمام (ع) بالإخبار عن أصل الحادثة وهي (ضرب المغيرة للسيدة الزهراء (ع))، ولم يكن الإخبار هنا مراده (ع) بقدر ما أراد تقييد الفعل بالمغيرة، ومحاصرته من الفرار من أصل الحادثة؛ لهذا ابتداء الإمام (ع) قوله بـ(أنت الذي)، ثم يبيّن (ع) الدرجات الصعودية في الفعل والحادثة، والاسترسال في الضرب والإصرار عليه، إذ لم يكن ضرباً عارضاً أو من غير شعور أو تعمّد، يظهر ذلك من إدماء المغيرة للسيدة الزهراء (ع)، واسقاطه لجنينها، إنّ التراتب بين الأقوال التي قدّمها الإمام (ع) خضعت كلها إلى علاقة تراتبية مترابطة تتحرّك كلها نحو نتيجة واحدة مضمرة؛ لهذا تتمظهر حجاجية هذه الأقوال في كونها تسدّ مسدّ الدليل المعين الذي يفهم من السياق، ومن بنية الأقوال نفسها وكما ميّن:



إنَّ التدرّج الحركي في بناء الخطاب الحجاجي يحكمه عنصر هامّ يتعلّق بمبدأ الضعف والقوّة في الحجة "فالحجج اللغوية ليست متكافئة ولا متماثلة، وتخالّف في هذا البراهين المنطقية والرياضية، فالحجة اللغوية لها قوّة معينة، وتحتل مرتبة ما من المراتب الحجاجية، فهناك الحجج القوية، والحجج الأقوى، وهناك الحجج الضعيفة والحجج الأضعف" (العزاوي، 2006: 88)، والمساهم في الربط بين الحجة الضعيفة والحجّة الأقوى الرابط الحجاجي (حتى)؛ لذا استثمره الإمام (ع) للربط بين حجّتين لهما النتيجة نفسها، إذ "الدليل الذي يرد عادة بعد هذا الرابط يكون أقوى، حجاجياً، وأعلى سلّمياً، من الأدلة التي ترد قبله" (العزاوي، 2006: 103)، فالضرب⁽¹⁾ وإن كان -بحد ذاته- انتهاكاً لحرمة النبي (ص) وفعلاً عظيماً تكاد تتفطرّ منه السموات والأرض وتخر منه الجبال، إلا أنّ بلوغه حدّ الإدماء وإسقاط الجنين لهو من أعظم الأفعال جرأة على الله تعالى، وعلى رسوله (ص).

⁽¹⁾ من غير المعقول أن نصف فعل المغيرة بضربه السيدة الزهراء (ع) بالحجة الضعيفة، ولكن بحسب الأدلة المعروضة والحجج التي يقدّمها الإمام الحسن (ع) في بيان شناعة فعل المغيرة بحق الزهراء (ع) فإنّ ما وقع بعد الضرب، وما ترتّب عنه لهو أعظم وأدهى وأمرّ.

ثمَّ إِنَّ الإمام (ع) يعدّ نتيجة لهذا الفعل الصارخ، وتعليلاً لهذا العمل الفادح، عبر بيانه لمكونات الفاعل وما انطوت عليه سريرته من كفر ونفاق، وما استبطنه قلبه من حقد وضغائن على نبي الرحمة محمد (ص)، ليصبّ (المغيرة) جام غضبه وحقده على السيدة الزهراء (ع) بوصفها ابنته وبضعته (ص)؛ لهذا يقيّد الإمام (ع) سبب إقدام المغيرة على فعله هذا بثلاث علل:

(1) اسْتِذْلَالاً مِنْكَ لِرَسُولِ اللَّهِ (صلى الله عليه وآله وسلم):

يبين الإمام (ع) أن الضرب لم يكن مجرد فعل عدواني، بل كان بهدف إذلال الرسول (صلى الله عليه وآله) وهذا يوظف الحجاج بالتعليل، ليجعل الجريمة أكبر من مجرد اعتداء فردي، بل اعتداء على مقام النبوة ذاته. وهذا يؤطّر الفعل داخل إطار التعدي على الرسول نفسه، ما يجعل الحجة أكثر قوّة، حيث يضع المُخاطَب في موقف دفاعي حرج، وأي محاولة لتبرير الفعل ستصطدم بهذه النية الخبيثة المُتعمّدة.

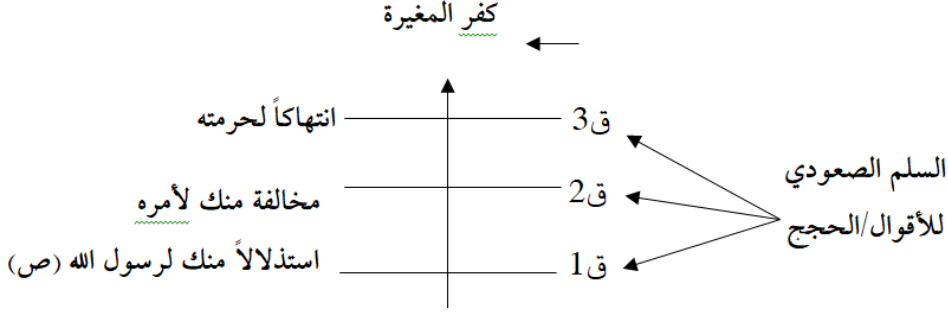
(2) وَمُخَالَفَةً مِنْكَ لِأَمْرِهِ

يظهر هنا المفعول لأجله كتعليل لفعل الضرب، مما يوضح أن المُخاطَب لم يكن فقط معتدياً، بل كان متعمداً مخالفةً أمر النبي (صلى الله عليه وآله)، مما يعزّز الإدانة الشرعية والأخلاقية، حيث يكشف عن نية المُخاطَب إلغاء سلطة النبي (صلى الله عليه وآله) وإثبات التمرد على تعاليمه.

(3) وَإِنْتِهَاكَ لِخُرْمَتِهِ

هذا التعليل يضع الفعل في سياق أخلاقي سلبي، حيث يقدّم الفعل على أنه تعديّ مقصود على حرمة النبي (صلى الله عليه وآله)، مما يثير استنكار المتلقي. وهو اعتداء على المقدّسات؛ مما يجعله أكثر من مجرد ظلم فردي

ويرتقي به إلى مستوى التعدي على الثوابت القيمة المتمثلة بحرمة النبي (صلى الله عليه وآله) وأهل بيته (عليهم السلام).



فلم يكن فعل المغيرة معاداة لشخص الزهراء (ع)، بقدر ما كان بغضاً لأبيها النبي (ص)، وتقليلاً من شأنه، وإرادة الحطّ من قدره، وانتهاك حرمة، وهذا يقودنا إلى النتيجة المضمرة الثاوية خلف هذه الأقاويل التي قدّمها (ع) وهي كفر المغيرة وعدم إسلامه ونفاقه.

ثم إنّ الإمام (ع) ينهي حجّته بذكر قول النبي (صلى الله عليه وآله) "يا فاطمة، أنت سيّدة نساء أهل الجنة"، مما يشكل مقابلة بين قيمتين، الأولى: أفعال الظلم والتعدي على الزهراء (عليها السلام) المعللة بأغراض غير مشروعة (الاستذلال، المخالفة، الانتهاك)، والثانية: مكانة السيدة فاطمة (عليها السلام) في أعلى المقامات الإلهية.

هذا التناقض الحجاجي يجعل الخطاب أكثر تأثيراً، إذ يدين الفاعل بمنطق التعارض بين الفعل الجائر والمكانة المقدسة للمظلومة (السيدة الزهراء "ع")

إنّ وراء فعل الفاعل لا بدّ من علّة دفعته إلى ذلك الفعل، وإنّ وراء الأحداث المتعاقبة والإيقاعات المختلفة من قبل الفاعل غرضاً أو رغبة

دفعته إلى إحداث ذلك الفعل، وهذا الغرض قد يكون مصرحاً به أو قد يكون مضمراً، يكتشفه المحاجج في خطابه لإفحامه الطرف الآخر، على نحو مخاطبة الإمام (ع) معاوية بعدما تحدّث جماعة من بني أمية في مجلسه بأحاديث أرادوا عبرها النيل من الإمام (ع) وشتمه فقال (ع): "إِنَّهُ لَعَمْرُ اللَّهِ يَا أَرْزُقْ مَا شَتَمَنِي غَيْرُكَ وَمَا هَؤُلَاءِ شَتَمُونِي، وَلَا سَبَّيْنِي غَيْرُكَ وَمَا هَؤُلَاءِ سَبُّونِي، وَلَكِنْ شَتَمْتَنِي وَسَبَّيْتَنِي، فُحْشاً مِنْكَ وَسُوءَ رَأْيٍ وَبَغْياً وَعُدْوَاناً وَحَسَداً عَلَيْنَا وَعَدَاوَةً لِمُحَمَّدٍ (صلى الله عليه وآله وسلم) قَدِيمًا وَحَدِيثًا" (الطبرسي، 1424هـ: 23/2). يبدأ الإمام (ع) خطابه الحجاجي بعدة مؤكّدات، وكلّها حجج أراد عبرها إيصال رسالة مركزية مثلت بؤرة الخطاب وغايته، وكشف عبرها دهاء معاوية ومكره بوضعه الإمام الحسن (ع) ذلك الموضع في جماعة بني أمية لينالوا منه (ع)، وكما مبين:

1- التوكيد الحرفي: إِنَّ

2- التوكيد بالقسم: لعمر الله

3- التوكيد بالقصر: ما شتمني غيرك

لقد استثمر الإمام (ع) الطاقة الحجاجية للمؤكّدات (إِنَّ، والقسم، والقصر) في مستهلّ خطابه لغرض تقوية العلة التي سيذكرها بعدها، ورغبة منه في إخضاع المتلقي لفحوى خطابه، فضلاً عن ذلك فإننا نستشف منه شدة أنكار المتلقي للخطاب.

فالعلة التي دفعت معاوية لعقد هذا المجلس إنما تكمن في العلل التي

ذكرها (ع) وهي:

1- فحشاً منك

2- سوء رأي

3- بغياً

4- عدواناً

5- حسداً علينا

6- عداوة لمحمد

هذا يدل على معرفة المتكلم الكاملة والخبرة الواسعة لطرف النزاع (معاوية) على نحو محاصرته بالعلل الأساس التي كانت وراء عقد المجلس المشؤوم بصورة لا يمكنه الفرار أو التخلص منها فإذا ما راودته نفسه الرد على علة من تلك العلل طالعه العلة الأخرى فيبقى أسير الرضوخ والانقياد لحجة المتكلم لا يحير معها جواباً ولا يستطيع منها فراراً.

والإمام (ع) قام بتوظيف الطاقة الحجاجية لتلك المفعولات بعناية كبيرة وتدرّج في الأقوال وصولاً إلى النتيجة الحقيقية وهي (عداوة لمحمد "ص") ونحن نشير إلى طبيعة ذلك التوظيف بما يأتي:

1- قدّم الإمام (ع) في سياق ردّه على معاوية (الفحش) حيث كشف أنّ الشتائم كانت بدافع الانحطاط الأخلاقي وهو ما كان عليه المُخاطَب، ثم يُعرج إلى (سوء الرأي) وفيه دلالة على فساد الرؤية لدى المُخاطَب وسوء التقدير، وهو ناتج عن فكر سقيم ومنحرف عندما أراد الانتقاص من مكانة الإمام (ع) بإقامة هذا المجلس، بعد ذلك يشير الإمام (ع) إلى (البغي) حيث يرفع مستوى الحجة إلى الظلم المتعمّد مما يضع المُخاطَب في سياق الجاني الذي لا مبرر له، ثم يذكر الإمام (العدوان) حيث يُظهر أنّ الشتيمة لم تكن مجرد كلمات بل كانت جزءاً من سلوكٍ عدواني متكامل، ويعلل بعد ذلك الإمام (ع) سبب هذا الهجوم عليه والشتيمة إنما هو (الحسد) فهو المحرّك الأساس، وهو ناتج عن منقصة يستشعرها المُخاطَب في نفسه مما يجعله ينال من الآخرين، ثم يختتم الإمام (ع) بـ(العداوة لمحمد) مما يضع

المُخاطَب عدوًّا للنبي (صلى الله عليه وآله) وهذا العداء ممتد لتاريخ طويل (قديمًا وحديثًا).

فتوظيف الإمام (ع) للمفعول لأجله وإخضاع المُخاطَبين لفحوى خطابه كشف لنا عن طاقة حجاجية كبيرة لهذه الأداة وهو سلاح حجاجي قوي استطاع الإمام (ع) عبره فضح النوايا، وإدانة الخصوم، وتقوية موقفه، مما جعله من أقوى الأساليب البلاغية التي وظفها في حجاجه.

2- لام التعليل: تعد لام التعليل من الروابط الحجاجية التي تستعمل لتبرير الفعل كما تستعمل لتبرير عدمه (الشهري، 2004، ينظر: 478)، وقد وردت كثيراً في خطابه (ع) على نحو مخاطبة عتبة بن أبي سفيان: ((فوالله ما أنت بحصيف فأجاوبك، ولا عاقل فأعاتبك، وما عندك خير يرجى ولا شر يخشى وما كنت ولو سببت علياً لأعير به عليك؛ لأنك عندي لست بكفو لعبد عبد علي بن أبي طالب فأرد عليك...)) (الطبرسي، 1424هـ: 39/2)، يبين الإمام السبب في رفضه إجابة المتلقي؛ كونه ليس بكفو لعبد العبد، وهذا أسلوب استعمله المتكلم في تضعيف حجة الخصم وتوهينها فهو ليس ممن يُسمع لقوله أو يُنصت لقوله، فضلاً عن ذلك فإن المتكلم يقدم بعض الحجج هي بمثابة مقدمات للنتيجة والعلة التي ذكرها فيما بعد، وهذه الحجج هي:

1- ما أنت بحصيف = فأجاوبك

2- ولا عاقل = فأعاتبك

3- وما عندك خير = يرجى

4- ولا شر = يخشى

فكانت تلك الحجج مقدمات للوصول إلى العلة الحقيقية لعدم إجابة المتكلم للمخاطب وعلى أقواله التي ذكرها. فتتابع العلاقات السببية في هذا

النص شكّل علاقة شبه منطقية جعلت منه نصاً مترابط الأجزاء ومتناسق الأفكار، وجعلت الأحكام متسلسلة متجاوبة مع بعضها. تكشف لنا هذه المقارنة أمور:

- 1- أنّ الخصم (معاوية) ليس كفراً لعبد من عبيد علي (ع)، وهذا الأمر يضع الخصم في موقع الهوان.
- 2- قلة قيمة الخصم وتدني مكانته إلى حد أنّ عبداً من عبيد علي (ع) يُعدُّ أعلى منه في الكفاءة والمقام.
- 3- المكانة السامية للإمام علي (ع) والمنزلة الرفيعة له ومن يتبعونه، بحيث أنّ عبداً من عبيده هو أسمى مكانة وأعلى شأنًا من الخصم.
- 4- الخصم ليس في مستوى الحوار ولا يملك القدرة على تقديم الحجة والرد.

- 5- تقويض الخصم بأي ردٍّ محتمل.
- 6- الهيمنة الفكرية والحوارية للإمام الحسن المجتبي (ع) جعلت الخصم في ضعف مطلق.

وكذا قوله (ع) مخاطباً عتبة: ((وما أنت بنظير أخيك، ولا خليفة أبيك؛ لأنّ أخاك أكثر تمرداً على الله، وأشدّ طلباً لاهراقه دماء المسلمين، وطلب ما ليس له بأهل، يخادع الناس ويمكرهم...)). يستعمل الإمام في هذا النص عنصر المفاجأة بنتيجة السبب والعلة التي ذكرها، فيكسر بذلك أفق توقع المتلقي، فالنسق النصي والترابط الجملي والتتابع السببي كلها تقود إلى نتيجة طبيعية، إلا أن المتكلم يفاجئ المتلقي بنتيجة معاكسة تماماً لما قد ظهر من المقدمات، فالتكلم يوعز إلى أن السبب في عدم أهلية عتبة بن ابي سفيان للخلافة؛ كونه ليس شبيهاً بأخيه معاوية، وهو ليس بخليفة أبي سفيان، وهو ما قد يرسم من صفات الكمال التي استحق بها معاوية الخلافة

وفقدتها عتبة، بعدها يتفاجأ المتلقي في السبب الذي جعله ليس شبيهاً بأخيه
معاوية إلى أن معاوية:

1- أكثر تمرداً على الله

2- أشد طلباً لإهراقه دماء المسلمين

3- طلب ما ليس له بأهل

4- يخادع الناس ويمكرهم

3- التركيب الشرطي: وهو الارتباط بين فعل الشرط والجزاء، بحيث إذا
وقع الفعل وقع الجزاء، وهذا مؤداه أن الجزاء ليس مستحيل الوقوع؛ لأن
الغرض من التعليق هو توليد قوة انجازية، على نحو قول الإمام الحسن (ع):
((وأما رجائي الخلافة، لعمر الله إن رجوتها فإن لي فيها لملتماً...))
(الطبرسي، 1424هـ: 39/2)، إن المقام هنا مقام انتفاء أن يكون للإمام
الحسن (ع) أي رجاء في الخلافة وهذا يقتضي الرد على من يدعي إرادته
لها، ووجه الملازمة بين الجواب والشرط هو دخول (إن الشرطية) على
الفعل الماضي من أجل تقوية الحجاج عن طريق إنزال ما لم يتحقق بمنزلة
المتحقق، عضده المتكلم بالقسم في بداية رسمه للحجة. مع هذا فالتكلم
يساوق المتلقي في رؤيته تلك (في إرادته الخلافة) على نحو يخالف العلة
المتصورة في رجائه إياها، ويجعلها مضمرة لترك المتلقي يعيش في فلك
التصورات المحتملة لتلك الإرادة.

المدعي (المحاج): أنت ترجو الخلافة وتسعى إليها

الإمام الحسن (ع):

(1) لا أرجو الخلافة = الخلافة بالمعنى الذي يفهمه المدعي

(2) أرجو الخلافة = وجود غاية ألتمسها منها

(3) إخفاء الغاية من الخلاف = جعل المتلقي يفترض عدة تأويلات

ثانياً: الأفعال اللغوية

تنطلق نظرية الحجاج من فكرة "إننا نتكلم عامة بقصد التأثير"؛ فاللغة تحمل بصورة جوهرية وظيفة حجاجية متضمنة في بنية الأقوال نفسها، يتمثل الحجاج في إنجاز متواليات من الأقوال بعضها بمثابة الحجاج اللغوية وبعضها بمثابة النتائج التي نستنتج منها، فيتأسس الحجاج على هذا على بنية الأقوال اللغوية وعلى تسلسلها داخل الخطاب (العزاوي، 2006، ينظر: 14-17).

يفرّق جون اوستن (J. Austin) بين قولين: الأول يسميه بـ(العمل القولي) وهو كل قول له غاية عملية ما وهو في ذاته عمل نقوم به. والثاني يسميه بـ(العمل اللاقولي) وهو كل قول يهدف إلى صياغة واقع جديد، فبمجرد صياغة القول يحدث فعل ما، وهو شيء آخر مغاير تماماً للنشاط الصوتي البسيط القائم على إرسال بعض الأصوات (الدريدي، 2011، ينظر: 147)، ومن أهم الأعمال اللاقولية (الاستفهام) إذ يعدّ التركيب الاستفهامي من أهمّ التراكيب الانشائية مقدرة في توجيه الخطاب وجهة حجاجية ما، وهو ((فعل حجاجي بالقصد المضمّر فيه على وفق ما يقتضيه السياق)) (الشهري، 2004: 485)، فإنّ طرح السؤال يعني ضرورة الحجاج؛ وعندما يوضع السؤال يوضع معه في الوقت نفسه رأي مخالف أو مناقشة ما، ومن ثمة حجاج، والحجة إنّما تعني الإتيان برأي مخالف أو موقف حول سؤال ما (ميّار، ينظر: 394).

لقد كان للاستفهام حضور بارز في خطاب الإمام الحسن (ع)؛ إذ كان له الدور في فرض إجابة محدّدة على المخاطب يملئها المقتضى الناشئ عن الاستفهام على نحو ما نلاحظه في مخاطبته عمرو بن عثمان حين سب الإمام

علي (ع): ((إن سبك علياً (ع): أبنقص في حسبه؟ أو تباعده من رسول الله (ص)؟ أو بسوء بلاء في الإسلام؟ أو بجور في حكم؟ أو رغبة في الدنيا؟ فإن قلت واحدة منها فقد كذبت.)) (الطبرسي، 1424هـ: 33/2)، فقد استعمل الإمام الحسن (ع) التكتيف الدفعي للأسئلة، وهي طريقة الجمع بين الأسئلة وتوجيهها سرداً واحداً، سؤالاً بعد سؤال، فإلى جانب أنها ((أخصر وأظهر لمنار الحق بسرد أدلته متوالية متعاضداً بعضها ببعض)) (الجنيلي، 1987: 81) فإن المتكلم يتخذها طريقة في تبكيك الخصم وإفحامه، حيث يوضع المتلقي بسلسلة شبكية من الأسئلة، فلا يستطيع وضع جواب لسؤال حتى يُفاجأ بسؤال آخر، فتختلط عليه الأسئلة ويبان عجزه.

إن الإمام هنا يطرح مجموعة من الاحتمالات التي قد تكون مدعاة لفعل خصمه (سب علي)، وكل هذه الاحتمالات باطلة بإقرار الخصم نفسه، يظهر ذلك من تحدي الإمام للخصم في القول بأحدها، وإذا بان ذلك فقط بطلت دعوى الخصم ولا مجال له إلا الإقرار بالهزيمة والرضوخ لفحوى حجة الطرف الآخر.

وقد يأتي تكرار الاستفهام من الإمام (ع) مسبقاً بفعل المناشدة¹، على نحو مخاطبة جماعة بني أمية في مجلس معاوية، حيث كرر الإمام (ع) فعل المناشدة (15) مرة وكلها تدور حول رسالة مركزية وهي إثبات أحقية أمير المؤمنين (ع) في الخلافة بعد رسول الله (ص)، والرد عليهم باتخاذهم سب الإمام علي (ع) وسيلة للنيل منه. لقد جاءت صورة المناشدة في خطابه (ع) بشكلين مع حرف الاستفهام (هل) و(الهمزة) كلها أفادت معنى التقرير والأثبات:

(¹) المناشدة: مصدر نَشَدَ، ونشدتك بالله: أي استحلفك بالله واقسم عليك به (ابن منظور: مادة نشد)

1- أنشدكم بالله هل تعلمون..... (7) مرات

2- أنشدكم بالله أتعلمون..... (8) مرات

إن طرَح السؤال هنا حمل بعداً حجاجياً في محاصرة المخاطَب، وإلزامه إجابة واحدة وهي الإقرار بالمقتضيات الناشئة التي وقعت بعد الفعل (تعلمون) (الطبرسي، 1424هـ، ينظر: 24/2-31) عمل الإمام (ع) على جعل المتلقي مسهماً في إنتاج الحجة، فيصنعها هو نفسه ويتقيد بها، فتكون بذلك أشد إلزاماً؛ لأنها تنبع من قرارة نفسه وإقراره من غير أن تفرض عليه سلطة ما تبني رأي ما أو موقف معين.

ثالثاً: الوصف

يشتمل الوصف على عدة أدوات لغوية نعرض لها بحسب ورودها في خطاب الإمام الحسن (ع):

1- الصفة: تعد الصفة حجة يوجهها المتكلم إلى الخصم بقصد إقناعه بفحوى الخطاب؛ وذلك بما تحملها من طاقة حجاجية تمثل شخصية الموصوف بتلك الصفة وعمله وهي أقوى تأثيراً من غيرها من الحجج؛ كونها حجة تنبع من الداخل، فضلاً عما تحيل عليه من نتائج مترتبة عليها، كما في قول الإمام (ع) مخاطباً عمرو بن العاص: ((وأما أنت يا عمرو بن العاص الشانئ اللعين الأبتـر...)) (الطبرسي، 1424هـ: 35/2)، فتقديم الإمام لهذه الأوصاف يزيل كثيراً من التساؤلات التي دفعت تلك الشخصية لفعل عمل ما في الخارج، فالذي يحمل هذه الأوصاف ليس بمستغرب منه صدور أعمال قبيحة في الخارج؛ لأنه من سنخية أوصافه التي ذكرها (ع)، فضلاً عن ذلك فإن الإمام استعار أوصاف تلك الشخصية من القرآن الكريم فأعطى

بذلك التفسير الحقيقي والمصداق الواقعي للنص القرآني المتمثل بتلك الشخصية.

وقد يذكر الإمام (ع) صفاته وصفات أهل البيت (ع) جميعاً؛ وذلك تبين للأمة أهليتهم وأنهم الأحق من غيرهم في تولية زمام الإمامة والخلافة، ذكر الصفات أدى طاقة حجاجية مضمرة كما في قوله (ع): ((أنا شعبة من خير الشعب، آبائي أكرم العرب، لنا الفخر والنسب، والسماحة عند الحسب، من خير شجرة أنبت فروعاً نامية، وأثماراً زاكية، وأبداناً قائمة، فيها أصل الإسلام، وعلم النبوة...)) (الطبرسي، 1424هـ: 45/2).

وقد يذكر (ع) صفاته وأهل البيت (ع) ويقارنها بصفات أعدائهم، ولا يخفى لما لهذه المقارنة من أثر حجاجي، يقود جمهور المتلقين إلى تفضيل هذه الشخصية على تلك عبر رصد الصفات كما في خطبة الإمام الحسن (ع) عندما ارتقى المنبر بعدما ارتقاه قبله معاوية ونال من الإمام علي (ع) فذكر (ع) مقارنة بينه وبين معاوية في النسب والصفات بعدها ذكر (ع): ((فلعن الله ألأمناء حسباً، وأقدمنا كفرنا، وأخملنا ذكراً، وأشدنا نفاقاً...)) (الطبرسي، 1424هـ: 53/2)، إنَّ مثل هذا التقابل في قول الإمام الحسن (ع) يحمل بين طيَّاته نوعاً من التوجيه، ودعوة صريحة من المحاجِّ لجمهور المتلقين في تبني رأيه وحجَّته.

2- اسم الفاعل: يعد اسم الفاعل من أنواع الوصف التي تشير إلى الحدث وصاحبه، يأتي به المتكلم حجة يسوِّغ عبرها إصدار حكم ما على شخصية معينة على نحو قوله (ع) في عتبة بن أبي سفيان: ((فوالله ما أنت بحصيف فأجاوبك، ولا عاقل فأعاتبك...)) (الطبرسي، 1424هـ: 38/2)، فوصف (عاقل) نفاه الإمام بـ(لا) نافية للجنس، فمعاتبه الشخص إنما تكون عندما يتصرف بعقل ودراية، أما من كانت حاله اللاعقلية فليس جديراً

بالمعاقبة، وهذه حجة ساقها الإمام (ع) في ردّه على (عتبة) عندما بدأ بسب الإمام علي (ع) والنيل منه. ويمكننا تلمس البعد الحجاجي لقوله (عليه السلام) ضمن هذا المقولة في:

أ. التوجيه السلبي للحوار

الإمام (عليه السلام) لا يدخل في مجادلة مباشرة، بل يقرر مسبقاً أن الحوار مع عتبة غير مجدٍ، وهو أسلوب يُفرغ خطاب الخصم من قيمته قبل أن يبدأ النقاش.

ب. المصادرة على المطلوب

يقوم الإمام بربط عدم الرد عليه بانتفاء العقلانية والحصافة عند عتبة، مما يجعل أي ردٍّ غير ضروري من الأساس، وهو ما يُعرف بـ"الاستبعاد الحجاجي"، أي نفي الحاجة للرد بحجة أن الخصم غير مؤهل.

ج. التوصيف السلبي

يتجه الإمام إلى وصف الصفات الذاتية لخصمه بدلاً من تفنيد حججه مباشرة، لكنه لا يقع في المغالطة، بل يستند إلى حقيقة مستخلصة من سلوكيات عتبة التي تجعله غير مؤهل للنقاش.

وبالنتيجة يعكس هذا القول هيمنة الإمام الحسن (عليه السلام) على الموقف، حيث إنه لا يمنح عتبة فرصة لفرض منطق، مما يجعله في موقف ضعف أمام السامعين. فضلاً عن استعمال الإمام (عليه السلام) اليمين ("فوالله") كآلية لتعزيز مصداقيته وتقوية أثر خطابه في وجدان المتلقي.

رابعاً: التشبيه والاستعارة

إنَّ الاستعارة تهدف إلى الإقناع وتوجيه المتلقي الوجهة التي يريدُها المتكلم⁽¹⁾؛ رغبة في تغيير مواقفه وأفكاره. ونتيجة لارتباط الاستعارة بسياقات تواصلية وتخطيبية؛ فإنَّها تعتمد على المقومات الحجاجية الأساسية كالمتكلم والمتلقي والسياق... الخ، مما له أثر بارز في إضفاء رؤية معمَّقة في عملية فهم الاستعارة.

اعتمد الإمام الحسن (عليه السلام) في خطبته على التشبيه والاستعارة كوسيلة خطابية فعالة لإيصال أفكاره بقوة وإقناع المستمعين، وذلك عبر:

1. تصوير الخصوم بصور وضيعة ومهينة لإضعاف موقفهم وإبراز فسادهم.

2. إبراز التناقضات بين أهل البيت وخصومهم بأسلوب مجازي عميق.
3. إضفاء القوة البلاغية على الخطبة من خلال التصوير الحي والمباشر.

كمخاطبته لعمر بن عثمان ((وأما أنت يا عمرو بن عثمان فلم تكن للجواب حقيقاً بحمقك، أن تتبع هذه الأمور فإنما مثلك مثل البعوضة إذ قالت للنحلة: استمسكي فإني أريد أن أنزل عنك، فقالت لها النحلة: ما شعرت بوقوعك، فكيف يشق علي نزولك)) (الطبرسي، 1424هـ: 54/2).

⁽¹⁾ من هنا نفهم أنَّ الاستعارة البديعية - التي في قبال الاستعارة الحجاجية - من الممكن ادخالها ضمن العملية الاقناعية اذا وُضِّفت بسحرها وجمالها للتأثير في المتلقي واقناعه، فليس طابع الجمال والتزيين فيها عائقاً أمام حجاجيتها، بل يمكن القول إن كل استعارة حجاجية هي بالأولى استعارة جمالية، فالمعنى يكون مقنعاً عندما يحلّ في قالب جمالٍ يوشّيه، ويحفظ له رونقه. وللوقوف على تأثير الجمال في الحجاج (الدريدي، 2011، ينظر: 120).

فالإمام هنا شبه عمرو بن عثمان بالبعوضة، وهو كائن ضعيف لا يكاد يُرى. وشبه نفسه بالنخلة، وهي شجرة عظيمة ذات جذور راسخة. وهذا التشبيه يعكس الفرق الكبير بين مقام الإمام وعظمة نسبه وعلمه، وبين تفاهة عمرو بن عثمان وعدم أهليته للحديث معه. كما أن البعوضة عندما تخاطب النخلة فإنها لا تؤثر عليها مطلقاً، بل تكون بلا قيمة وهو يحتوي على بعد حركي، فالبعوضة لا تؤثر في النخلة، حتى لو اقتربت منها أو حاولت مضايقتها، مما يعني أن كلام الخصم غير ذي قيمة أمام الإمام.، وهذا تعبير عن تجاهل الإمام لكلام خصمه.

الاستعارات التي وظّفها الإمام الحسن المجتبي (عليه السلام) ليست مجرد تزيين لغوي، بل تؤدي وظيفة حجاجية قوية، حيث تُستخدم لإثبات فساد الحكم الأموي من خلال تصوير الواقع بطريقة تُحرّك العواطف وتُحدث صدمة معرفية لدى السامع. الإمام لا يكتفي بانتقاد بني أمية بلغة مباشرة، بل يُجسّد مظلّمهم عبر استعارات تجعل الفساد والاستبداد محسوساً للمتلقي. كما في قوله (عليه السلام): ((أخذوا مال الله دُولاً، وعباده خُولاً، وكتابه دَغَلًا))

الاستعارات في هذه العبارة ليست مجرد تزيين لغوي، بل تؤدي وظيفة حجاجية قوية، حيث تُستخدم لإثبات فساد الحكم الأموي من خلال تصوير الواقع بطريقة تُحرّك العواطف وتُحدث صدمة معرفية لدى السامع. الإمام لا يكتفي بانتقاد بني أمية بلغة مباشرة، بل يُجسّد مظلّمهم عبر استعارات تجعل الفساد والاستبداد محسوساً للمتلقي، ويمكننا تلمس أبعاد هذا التوظيف عبر نقاط:

1- استعارة التدوير والاحتكار في قوله (عليه السلام): "مال الله دُولاً" فكلّمة "دُولاً" مشتقة من التداول والتناوب، وهي تُحيل إلى احتكار السلطة

والثروة بين مجموعة صغيرة دون إشراك عامة الناس. وفي القرآن، وردت هذه الفكرة في قوله تعالى: ﴿كَيِّ لَا يَكُونُ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ﴾ (الحشر: 7)، مما يجعل الاستعارة تحمل إدانة دينية صريحة. فالإمام بذلك يجعل المال يبدو كأنه لعبة بين أيديهم، مما يثير الغضب لدى الفقراء، وهذا يُنتج حجة "إنهم لا يحكمون بالعدل لأنهم يحتكرون المال"، مما يُضعف شرعية حكم بني أمية، ويثير الغضب الشعبي ضدهم.

2- استعارة العبودية والملك الخاص في قوله (عليه السلام): "عباده خولاً"، فإنه يُصور الناس وكأنهم تحوّلوا من أحرار إلى عبيد مملوكين، ما يجعل المستمع يدرك مدى إذلال الأمة وهذه الاستعارة تفضح استبداد بني أمية، إذ إنها تُقنع السامع بأن "الحكم الأموي يُعامل الناس كرقيق وليس كرجل عاقل". وهذا الاستدلال يثير الغضب لدى الناس ويدفعهم لرفض شرعية السلطة.

3- استعارة التحريف والخداع في قوله (عليه السلام): "كتابه دغلاً"، فكلية (دغلاً) تأتي من الدغل، وهو الفساد المتغلغل في الشيء والخداع المموه وهنا يُصور الإمام القرآن وكأنه أصبح أداة تُستغل بطريقة خبيثة ومُضِلَّة، بدلاً من كونه مرجعاً للحق والعدل، هذا التصوير يُقنع الناس بأن بني أمية ليسوا مجرد حكام ظالمين، بل مُحَرِّفون للدين نفسه، مما يُبرّر رفضهم تماماً ويثير الاشتزاز من استغلال المقدسات.

النتائج

1- كشفت الدراسة أن أغلب محاججات الإمام الحسن (عليه السلام) كانت موجهة ضد جماعة بني أمية، وخصوصًا في مجلس معاوية، حيث سعى الإمام إلى تفنيد حججهم وكشف تناقضاتهم من خلال خطاب عقلاني ومنطقي.

2- تمحورت الموضوعات الرئيسة في خطابات الإمام (عليه السلام) حول الرد على الشبهات التي أثارها الخصوم، لا سيما تلك المتعلقة بأمر المؤمنين علي (عليه السلام) وفتنة مقتل عثمان، وما تبعها من أحداث سياسية واجتماعية دامية، مما يعكس بُعدًا حجاجيًا دفاعيًا في خطابه.

3- اعتمد الإمام الحسن (عليه السلام) على مجموعة متنوعة من الآليات الحجاجية في خطابه، مستخدمًا أساليب تتناسب مع طبيعة الموقف والمتلقي، وبرز في بعضها أسلوب الرد اللاذع لمواجهة حجج الخصوم حينما كان السياق يستدعي ذلك، مما يدل على وعيه العميق بمتطلبات الموقف الحجاجي.

4- استند الإمام (عليه السلام) في خطابه إلى معطيات واقعية مألوفة لدى المخاطبين، مستلهمًا مضمون حججه من بيئتهم وتجاربهم الحياتية، مما عزز من فاعلية الإقناع وساهم في إيصال رسالته بوضوح وتأثير، وهو ما يؤكد على البعد التداولي لحججه رغم ارتكازه على المنطلقات اللغوية.

5- ظهر في خطاب الإمام الحسن (عليه السلام) استخدام بارز للمنطق الاستدلالي والاستقراء، حيث كان يعتمد على البرهان العقلي والنقل الموثوق في تفنيد الحجج المضادة، مما يكشف عن حضور قوي للحجاج القائم على الدليل المنطقي والتاريخي.

6- اعتمد الإمام (عليه السلام) على التقابل الحجاجي بين المبادئ الأخلاقية التي يمثلها وبين السلوكيات السياسية لجماعة بني أمية، مما أضفى على خطابه طابعاً جدلياً أخلاقياً يعزز من قوته التأثيرية لدى الجمهور.

7- أظهرت خطابات الإمام الحسن (عليه السلام) قدرة كبيرة على التكيف مع السياقات المختلفة، فكان يستخدم الأسلوب العاطفي عند الحاجة لاستثارة وجدان المخاطبين، بينما كان يوظف المنطق والبرهان عند مجادلة الخصوم، مما يعكس تنوع استراتيجياته الحجاجية.

المصادر والمراجع

القرآن الكريم

- ابن الأثير، نجم الدين أحمد بن إسماعيل الحلبي (ت737هـ). جواهر الكنز- تلخيص كنز البراعة في أدوات ذوي البراعة-. منشأة المعارف. الإسكندرية-مصر. د. ط.

- ابن عيسى، د. عبد الحلیم. المرجعية اللغوية في النظرية التداولية. جامعة وهران. الجزائر. (بحث). 2008.

- ابن منظور، جمال الدين أبو عبدالله محمد بن مكرم (ت711هـ). لسان العرب. تحقيق ياسر سليمان أبو شادي. ومجدي فتحي السيد. المكتبة التوفيقية. مصر. د.ت.

- الأزهری، أبو منصور محمد بن أحمد (370هـ). تهذيب اللغة تحقيق: إبراهيم الأبياري، دار الكتاب العربي، 1967م.

- أوستن، جون. نظرية أفعال الكلام العامة. تر: عبدالقادر قينيني. أفريقيا الشرق. المغرب. ط2. 2008م.

- بروتون وجوتييه، فيليب وجيل. تاريخ نظريات الحجاج. تر: د. محمد صالح الغامدي. مركز النشر العالمي. جدة-السعودية. ط1، 1432هـ/2011م.
- بوبكري، راضية خفيف. التداولية وتحليل الخطاب الأدبي مقارنة نظرية، (بحث). الجزائر، العدد 399، 2004.
- بوقرة، د. نعمة. المدارس اللسانية المعاصرة. مكتبة الآداب. القاهرة. د. ط.
- الجرجاني، السيد الشريف علي بن محمد (ت816هـ). الإشارات والتنبيهات. تح: عبدالقادر حسين. دار نهضة مصر. القاهرة-مصر. ط1. 1982.
- الجوهري، إسماعيل بن حمّاد (ت393هـ). الصحاح. ترتيب وتصحيح إبراهيم شمس الدين. شركة الأعلمي للمطبوعات. بيروت. ط1، 1433هـ/2012م.
- الحنبلي، نجم الدين الطوفي (ت716هـ). علم الجدل في علم الجدل. تح: فولفهارت هاينريشس. فرانز شتاينر. فيسبادن-ألمانيا. د. ط. 1408هـ/1987م.
- الخوارزمي، القاسم بن الحسين (ت617هـ). شرح المفصل في صناعة الإعراب الموسوم بـ(التخمير). تح: د. عبدالرحمن بن سليمان بن العثيمين. دار الغرب الإسلامي. بيروت-لبنان. ط1. 1990م.
- الدريدي، د. سامية. الحجاج في الشعر العربي-بنيته وأساليبه-. عالم الكتب الحديث. إربد-الأردن. ط2. 1432هـ/2011م.

- الدكان، د. محمد بن سعد. الدفاع عن الأفكار-تكوين ملكة الحجاج والتناظر الفكري-. مركز نماء للبحوث والدراسات. بيروت-لبنان. ط1. 2014م.
- رحيمة، شيتير. التداولية وآفاق التحليل. جامعة محمد خضير-بسكرة (الجزائر). 2008.
- الزمخشري، أبو القاسم جار الله محمد بن عمر بن أحمد (538هـ). أساس البلاغة. دار الكتب العلمية، بيروت لبنان.
- السيوطي، أبو الفضل جلال الدين عبدالرحمن بن أبي بكر (ت911هـ). معترك الأقران في إعجاز القرآن. تح: أحمد شمس الدين. دار الكتب العلمية. بيروت-لبنان. ط1. 1988/1408م.
- الشّهري، د. عبدالهادي بن ظافر. الخطاب الحجاجي عند ابن تيمية - مقاربة تداولية-. مؤسسة الانتشار العربي. بيروت-لبنان. ط1. 2013م.
- الشّهري، عبدالهادي بن ظافر. استراتيجيات الخطاب مقاربة لغوية تداولية. دار الكتاب الجديد المتحدة. بيروت-لبنان. ط1، 2004م.
- صحراوي، د. مسعود. التداولية عند العلماء العرب. دار الطليعة للطباعة والنشر. بيروت-لبنان. ط1. 2005م.
- صولة، د. عبدالله. الحجاج في القرآن من خلال أهم خصائصه الأسلوبية. دار الفارابي. بيروت-لبنان. ط2. 2007م.
- الطبرسي، الاحتجاج. أبو منصور أحمد بن علي بن أبي طالب من أعلام القرن السادس الهجري (ت520هـ). تحقيق الشيخ إبراهيم البهادري. والشيخ محمد هادي به. بأشراف العلامة الشيخ جعفر السبحاني. دار الأسوة للطباعة والنشر. قم المقدسة. ط4. 1424هـ.

- الطلبة، د. محمد سالم محمد الأمين. الحجاج في البلاغة المعاصرة الحجاج في البلاغة المعاصرة، بحث في بلاغة النقد المعاصر، ط1، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت - لبنان. 2008.
- عبد الحميد، محمد محيي الدين. شرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك ومعه كتاب منحة الجليل بتحقيق شرح ابن عقيل. مكتبة دار التراث. القاهرة. د.ط. 1426هـ-2005م.
- عبدالرحمن، د. طه. في أصول الحوار وتجديد علم الكلام. المركز الثقافي العربي. الدار البيضاء-المغرب. ط2. 2000م.
- عبدالرحمن، د. طه. اللسان والميزان أو التكوثر العقلي. المركز الثقافي العربي. الدار البيضاء-المغرب. ط1. 1998م.
- العزاوي، د. أبو بكر. اللغة والحجاج. العمدة في الطبع. الدار البيضاء-المغرب. ط1. 1426هـ/2006م.
- عشير، د. عبدالسلام. عندما نتواصل نغير-مقاربة تداولية معرفية لآليات التواصل والحجاج-. أفريقيا الشرق. المغرب. د. ط. 2006.
- ميار، ميشال. البلاغة والحجاج من خلال نظرية المساءلة، (بحث) ضمن كتاب أهم نظريات الحجاج في التقاليد الغربية من أرسطو إلى اليوم، إشراف حمادي صمود، منشورات كلية الآداب - منوبة، جامعة الآداب والفنون الإنسانية، تونس (د-ت).
- نحلة، د. محمود أحمد. آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر. مكتبة الآداب. القاهرة. ط1. 1432هـ/2011م.